

فتح إفريقية (١)

رسوم
إبراهيم سمرة

بقلم
عبد الحميد عبد المقصود



المؤسسة العربية للدراسات
والبحوث

طبع في مصر
بمطبعة دار الفكر العربي
١٩٩٥ م

تَخْتَلِفُ الْفُتُوحَاتُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ لِقَارَةِ أَفْرِيقِيَا ، عَنْ آيَةِ فُتُوحَاتٍ قَامَ
بِهَا الْقَوَادُ الْمُسْلِمُونَ ، فِي أَنْحَاءٍ مُتَفَرِّقَةٍ مِنَ الْعَالَمِ . . . فَهَذِهِ الْفُتُوحَاتُ
حَدَّثَتْ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَفِي فُتُوحَاتٍ زَمَنِيَّةٍ مُتَبَاعِدَةٍ حِينًا ، مُتَقَارِبَةٍ أَيْضًا ،
كَمَا أَنَّهَا تَمَثَّلَتْ عَلَى يَدِ أَكْثَرِ مِنْ قَائِدٍ إِسْلَامِيٍّ عَظِيمٍ .
وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ كَانَ يَتِمُّ فِيهَا فَتْحُ هَذِهِ الْبِلَادِ ، كَانَ يُعْقِبُهَا فُتْنٌ وَتَوَرَّاتٌ مِنَ
الْبَرْبَرِ - سُكَّانِ هَذِهِ الْبِلَادِ - بِمُجَرَّدِ انْسِحَابِ جُيُوشِ الْمُسْلِمِينَ مِنْهَا ،
وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْبِلَادِ يَمُودُونَ إِلَى وَثَنِيَّتِهِمْ مَرَّةً أُخْرَى ، مِمَّا يَضْطَرُّ الْقَوَادُ
الْمُسْلِمِينَ إِلَى إِعَادَةِ الْفَتْحِ مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْأَمْرُ أَخِيرًا
لِلْمُسْلِمِينَ وَتَمَكَّنَ الْإِسْلَامُ مِنْ قُلُوبِ هَؤُلَاءِ الْبَرْبَرِ .





وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَوَّلَ الْفَاتِحِينَ لِبِلَادِ الْقَارَةِ الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَكَانَ فَائِذَا
إِسْلَامِيًا يَنْصَفُ بِالْخَبْرَةِ وَالْدُّهَاءِ ، فِي الشُّؤْنِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ ،
بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِ حَازِفًا بِالْقَطْرِ وَالْتَّجَرَّةِ .

فَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ فَتْحَ مِصْرَ ، وَاسْتَنْتَبَ لَهُ الْأَمْرَ فِيهَا ، فَنَشَرَ الْإِسْلَامَ بَذَرِ
رَأْيَتِهِ عَالِيَةً خَفَافَةً فَوْقَ رِجْلَيْهَا ، بَرَزَتْ شَخْصِيَّتُهُ الْقَوِيَّةُ ، وَصَارَ مَوْضِعَ ثِقَةٍ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ، ثُمَّ أَخَذَ يَنْتَظِعُ إِلَى فَتْحِ بَقِيَّةِ بِلَادِ الْقَارَةِ
الْأَفْرِيقِيَّةِ ، وَنَشَرَ الْإِسْلَامَ فِيهَا .

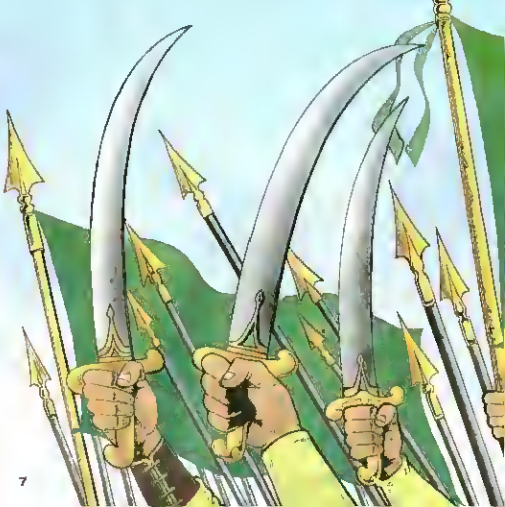




سَارَ عَمْرُو فِي جَيْشٍ مِنَ الْفَرَسَانِ (رَاكِبِي الْخَيْلِ) حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمٍ
 «بَرْقَةٍ» وَفَتَحَهَا ، وَتَمَّ الصَّلَاحُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهَا عَلَى جَزِيَةٍ يُؤَدُّونَهَا إِلَيْهِ .
 ثُمَّ سَارَ ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى إِقْلِيمٍ «طَرَابُلُسَ» عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَتَوَسِّطِ ،
 وَنَزَلَ عَلَى قَبَّةٍ مُرْتَفِعَةٍ تُشْرِفُ عَلَى شَرْقِ الْإِقْلِيمِ ، وَظَلَّ يُحَاصِرُ الْمِنْطَقَةَ
 لِمُدَّةٍ شَهْرٍ ، دُونَ أَنْ تَسْتَسْلِمَ لَهُ .



وَذَاتَ يَوْمٍ خَرَجَ جَمَاعَةٌ مِنْ عَسْكَرِ عَمْرِو لِلصَّيْدِ ، فَلَمَّا
 ابْتَعَدُوا عَنْ الْمُعَسْكَرِ ، وَأَصَابَتْهُمْ الْحَرُّ وَالْثَّغْبُ الشَّدِيدُ ،
 جَلَسُوا يَسْتَرْيَحُونَ بِالْقُرْبِ مِنْ سُورِ الْمَدِينَةِ الَّتِي يَقَعُ عَلَى
 شَاطِئِ الْبَحْرِ مُبَاشَرَةً فَاتَّخَذُوا سُلْفَى الرُّومِ الرَّاسِيَةَ بِالْقُرْبِ مِنْ
 الشَّاطِئِ ، وَقَدْ غَاضَ عَنْهَا الْمَاءُ ، نَتِيجَةَ حَرَكََةِ جَذْرِ الْبَحْرِ .



وفى الحال دخل هؤلاء الرجال إلى المدينة فى غفلة من أهلها ، الذين كانوا يشتريخون من عتاء الحر ، ثم وصلوا إلى كنيسة المدينة ، فصعدوا قبابها ، وأخذوا يكبرون .

فرع الروم فرعا شديدا ، وهرثوا إلى سفنهم ، ظنا منهم أن جيش المسلمين قد دخل المدينة ، وبهذه الحيلة تمكن جيش عمرو من الدخول إلى المدينة ، واحتلالها .

ثم أخذ يجرّد الحملات من فرسانه إلى البلدان المجاورة ، ففتحوها ونشروا الإسلام فيها .



بعد ذلك كتب عمرو بن العاص ، إلى عمر بن الخطاب ، يستأذنه في
مدا الفتح الإسلامي إلى بقية بلدان القارة الأفريقية ، فنهاه عمر عن ذلك .
فما كان من عمرو إلا أنه أطاع طاعة كاملة ، ورجع بجيشه إلى مصر ، بعد
أن ترك عتبة بن رافع في عدد من المسلمين هناك .



فِي عَهْدِ وَلَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، تَوَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ ، حُكْمَ
 مِصْرَ ، وَطَلَبَ مِنْ عُثْمَانَ مَدَدًا لِتَوْجِيهِ الْفَتْحِ إِلَى أَفْرِيقِيَّةَ ، فَجَهَّزَ لَهُ عُثْمَانُ
 جَيْشًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَفِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْيَانِ الصَّحَابَةِ . (عِدَّةُ الْجَنِيشِ
 ٤ أَلْفَ فَارِسٍ وَ ٨٠٠ رَاجِلٍ) وَأَعَانَهُمْ عُثْمَانُ بِأَلْفٍ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَمَرَ عَلَيْهِمْ
 مِرْوَانَ بْنَ الْحَكَمِ ، حَتَّى يَصْلُوا مِصْرَ ، فَيَتَوَلَّى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ
 قِيَادَتَهُمْ .





وَفِي مِصْرَ يَسْتَقِلُّهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ ، وَيَضُمُّ إِلَى الْجَيْشِ جَيْشًا مِنْ عُنْدِهِ ، لِيُصْبِحَ الْعَدَدُ الْكُلُّ لِلْجَيْشِ عَشْرَةَ أَلْفٍ مُقَابِلَ . ثُمَّ يَرْحَفُ الْجَيْشُ بِحِذَاءِ شَاطِئِ الْبَحْرِ الْمَشْرِقِيِّ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى بَرْقَةِ ، وَهَنَّاكَ يُقَابِلُهُمْ عُقْبَةُ بْنُ نَافِعٍ فَيَمُتُّ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . ثُمَّ يَرْحَفُ الْجَمِيعُ نَحْوَ طَرَابُلُسَ ، الَّتِي كَانَ الرُّومُ الْبِيزَنْطِيُّونَ قَدْ سَيَّطَرُوا عَلَيْهَا بَعْدَ عَوْدَةِ عُمَيْرِ ابْنِ الْعَاصِ إِلَى مِصْرَ وَتَخْدُثُ مَعَارِكُ حَامِيَّةَ بَيْنَ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ . وَجَيْشِ الرُّومِ ، وَيَنْهَزُمُ الرُّومُ أَمَامَهُمْ ، وَبِذَلِكَ يَسْتَرْدُّ الْمُسْلِمُونَ طَرَابُلُسَ ثَانِيَةً ، وَيُصْبِحُ إِقْلِيمُ لَبْنَاءَ كُلَّهُ تَحْتَ سَيْطَرَةِ الْمُسْلِمِينَ مَرَّةً أُخْرَى .



ثُمَّ يَتَقَدَّمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ بِالْحَيْشِ ، فَيَصْلُونَ إِلَى
 حَدُودِ ثُوَيْسٍ (وَكَانَتْ ثُوَيْسٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ شَائِهًا شَانًا بِلَدَانِ
 حَدُودِ الشَّامِ الْأَفْرِيقِيِّ) وَاقْعَةً نَحْتَ سَيْطَرَةِ الرُّومِ الْبِيزَنْطِيِّينَ .
 وَكَانَ سُكَّانُ هَذِهِ الْمَنَاطِقِ كُلُّهُمْ مِنَ الْبَرْبَرِ ، وَكَانَ يَحْكُمُهُمْ
 مَلِكٌ يُدْعَى جَرَّجِيرَ .



وَيَطْرُقُ الْمُسْلِمُونَ بِقِيَاضَتِهِمُ الْقَوِيَّةَ أَبْوَابَ الْمَلِكِ جُرَّ جِيرَ ، الَّذِي يُطْلُ
عَلَيْهِمْ مِنْ مَمْلَكَتِهِ ، سَائِلًا عَنْ مَقْصِدِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ ، فَيَقُولُونَ لَهُ : إِنَّهُمْ
يَدْعُوْنَهُ إِلَى الدُّخُولِ فِي الدِّينِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ أَهْلُ مِصْرَ ، أَوْ دَفْعِ الْجَزْيَةِ
عَنْ يَدِهِ وَهُوَ صَاغِرٌ .

وَلَكِنْ جُرَّ جِيرَ يَعْتَبِرُهَا إِهَانَةً تُلْحِزُ بِهِ كَمَلِكِ عَظِيمٍ يَحْكُمُ كُلَّ هَذِهِ
الْبِلَادِ ، الَّتِي تَمْتَدُّ إِلَى حُدُودِ الْمُحِيطِ الْأَطْلَسِ .





وَأَخِيرًا كَانَتْ الْحَرْبُ . . حَسَدَ جُرْجِيرٍ جَيْشًا مِنَ الرُّومِ وَالزُّبَيْرِ قَوَامُهُ
 مِائَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا ، التَّقَى بِجَيْشِ الْمُسْلِمِينَ الْقَلِيلِ الْقَدَدِ وَالْعُدَّةِ ،
 وَاقْتَتَلُوا فَتَلَا شَدِيدًا عِنْدَ مَدِينَةِ «سَبَيْطَلَةَ» مَقَرَّ الْمَلِكِ جُرْجِيرٍ .
 فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يَنْفَطِعُ خَيْرُ جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانٍ .
 فَيُرْسَلُ إِلَيْهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ . لِيَأْتُوهُ بِأَخْبَارِهِمْ .
 فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى مُعَسَّكَرِ الْمُسْلِمِينَ ، عَلَا التَّكْبِيرُ وَالْتِهْلِيلُ ، مِمَّا جَعَلَ
 الْخَوْفَ وَالْفَزَعُ يَدْبُانِ فِي قُلُوبِ عَسَاكِرِ الْمَلِكِ حُرْجِيرٍ . وَلَمَّا سَأَلَ جُرْجِيرُ
 رِجَالَهُ عَنِ الْخَبِيرِ ، أَخْبَرُوهُ بِأَنَّ جَيْشَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ جَاءَهُ مَدَّةٌ عَظِيمٌ .
 فَأَوْهَنَ ذَلِكَ مِنْ عَزِيمَةِ جُرْجِيرٍ .





وَرَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّزَّازِ أَنَّ فِتْنَةَ الْمُسْلِمِينَ بِسُتْمَرٍ كُلِّ يَوْمٍ مِّنْهُ الصَّبَاحُ
الْبَاكِرُ ، فَإِذَا أُدُنَّ لِلظَّهْرِ عَادُوا إِلَى حِيَامِهِمْ ، فَلَا يَنْجِدُ الْقِتَالُ إِلَّا فِي
صَبَاحِ الْيَوْمِ الثَّالِي .

وَذَاتَ يَوْمٍ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّزَّازِ يُقَاتِلُ فِي صُفُوفِ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَمَّ يَرِ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ ، فَلَمَّا سَأَلَ عَنْ سَبَبِ اخْتِفَائِهِ ، عَرَفَ أَنَّ جُرْجِيرَ ،
قَدْ نَادَى بَيْنَ جُنُودِهِ بِأَنَّهُ قَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي السُّرْحِ نَالَ جَائِزَةً عَظِيمَةً ،
عِلَاقَةً عَلَى التَّزْوُجِ مِنْ ابْنَةِ جُرْجِيرَ ، لِذَلِكَ فَقَدْ أَثَرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السُّرْحِ
أَنَّهُ يُدِيرُ الْمَعْرَكَةَ مِنْ خَلْفِ الصُّفُوفِ ، حَتَّى لَا يُؤَثِّرَ اسْتِشْهَادُهُ عَلَى
عِزَّةِ جُنُودِهِ ، وَثَبَاتِهِمْ ضِدَّ جَيْشِ جُرْجِيرَ .



وَفِي الْيَوْمِ النَّالِي أَشَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ الرَّثِيرِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي
الْمَرْحُحِ ، بِأَن يُقَابِلَ الْحِجَلَةَ بِمِثْلِهَا وَأَن يُنَادِيَ فِي جُنُودِهِ أَيْضًا بِأَن
مَنْ قَتَلَ جُرْجِيرًا ، فَلَهُ جَائِزَةٌ مَالِيَّةٌ عَظِيمَةٌ ، عِلَاوَةً عَلَى تَوَلَّى
حُكْمِ الْبِلَادِ الَّتِي كَانَ يَحْكُمُهَا جُرْجِيرٌ .
فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ ، خَافَ جُرْجِيرٌ خَوْفًا شَدِيدًا مِنْ جُنُودِ
الْمُسْلِمِينَ بِرَعْمِ قَلَّةِ عَدَدِهِمْ .



وَلَمَّا طَالَ قِتَالُ الْمُسْلِمِينَ مَعَ جُنُودِ جُرْجِيرٍ ، وَاسْتَمَرَّتِ الْحَرْبُ بَيْنَهُمْ
سَجَالًا ، لَجَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّبِيعِ إِلَى حَبْلَةٍ جَدِيدَةٍ ، مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تُعَجِّلَ
بِنَهَايَةِ الْحَرْبِ بَيْنَ الْجَيْشَيْنِ الْمُتَحَارِبَيْنِ ، فَقَدْ أَشَارَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي
السَّرْحِ ، بِأَنْ يَتْرَكَ جَمَاعَةً مِنْ أَبْطَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي خِيَامِهِمْ ، يَسْتَرْجِعُونَ
وَيَتَاهَبُونَ لِمَوَاقِعِ الْقِتَالِ ، بَعْدَ أَنْ يَسْتَنْفِذَ الْبَرَزُ قُوَّتَهُمْ فِي قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ
مُنْذُ الصَّبَاحِ ، وَحَتَّى وَقْتُ الظُّهْرِ ، فَإِذَا أَرَادُوا فَضْلَ الْاِسْتِبَاكِ وَالْاِنْصِرَافِ
لِلْمَرَاخَةِ فِي مُعْسَكِهِمْ لَمْ يُمْكِنَتْهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ ذَلِكَ .



وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِي ، مَكَثَ قَرِيبُ مِنْ شَجَعَانَ الْمُسْلِمِينَ
 فِي خِيَامِهِمْ لِلرَّاحَةِ ، وَخَيَّوْلَهُمْ مُسَرَّجَةً ، اسْتَعْدَادًا
 لِلانْطِلَاقِ فِي آيَةِ لَحْظَةٍ . فَلَمَّا أَذِنَ لِلظُّهْرِ ، وَأَرَادَ
 جُنُودُ جَرْجِيرٍ أَنْ يَهْمُوا بِالنَّصْرِافِ لِمَ يُمْكِنُهُمْ هَوْلَاءِ
 الْأَبْطَالِ مِنْ ذَلِكَ ، وَانْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ مَعَ مَنْ
 مَعَهُ مِنْ فَرَسَانِ الْمُسْلِمِينَ وَحَمَلُوا عَلَى الْبَرَبْرِ حَمْلَةً
 رَجُلٍ وَاحِدٍ .



لَمْ يَتِمَّكَنَ الْبِرْتَرُ مِنْ صَدِّ هُجُومِ الْمُسْلِمِينَ الْمُفَاجِئِ ، وَحَدَّثَ أَرْتَبَاكَ
عَظِيمَ بَيْنَ صُفُوفِهِمْ وَالَّتِي اخْتَلَّ نِظَامُهَا وَقُتِلَ عَدَدٌ عَظِيمٌ مِنْ جُنُودِ الْبِرْتَرِ
وَقَوَادِمِهِمْ ، بَيْنَمَا لَاذَ الْبَاقُونَ بِالْفِرَارِ ، أَوْ وَقَعُوا فِي الْأَسْرِ .

بَعْدَ ذَلِكَ نَازَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الرَّثِيرِ الْمَلِكُ جَرْجِيرَ ، وَبَعْدَ صَوَلَاتٍ
وَجَوَلَاتٍ تَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ . وَأَخَذَتْ ابْنَةُ جَرْجِيرٍ أَسِيرَةً مَعَ أَسْرَى الْبِرْتَرِ .

وَهَكَذَا تَمَكَّنَ جَيْشُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ حِصَارِ الْمَدِينَةِ ، وَفَتْحَهَا . ثُمَّ أَخَذَ
الْمُسْلِمُونَ يَعْمَلُونَ عَلَى نَشْرِ الْإِسْلَامِ بَيْنَ قِبَائِلِ الْبِرْتَرِ ، وَيُعَلِّمُونَهُمْ أَصُولَ
الدِّينِ الْجَدِيدِ .

ثُمَّ ...





يُرْسِلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي السَّرْحِ جُيُوشَهُ فِي الْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ ، وَنِيَمَ قَتَحَ بَقِيَّةَ
حُدُودِ السَّاحِلِ الْأَفْرِيقِي ، وَيُوَكِّلِي عَلَيْهِمْ حَاكِمًا مِنْهُمْ ، بَعْدَ أَنْ يَتَقَدَّ مَعَهُمْ
صُلْحًا ، وَيَأْخُذَ الْعِزَّةَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ بِاعْتِبَارِهِ مُنْتَصِرًا . ثُمَّ يَعُودُ إِلَى
مِصْرَ مَرَّةً أُخْرَى .

وَهَكَذَا تُشْرِقُ شَمْسُ الْإِسْلَامِ عَلَى بَقْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الْأَرْضِ ، هِيَ شِمَالُ
أَفْرِيقِيَا .

